

دولة بحثت عن مكانها تحت الشمس

"ألمانيا والاسلام" لعبد الرؤوف سنو *
دعد بو ملهب عطاله **

انه الكتاب الذي انتظره كل باحث يهتم بالشؤون الدولية في التاريخ المعاصر. اعتمد كتاب الدكتور عبد الرؤوف سنو بشكل خاص ومباشرة على مصادر ألمانية، وهذا ليس متيسرا لمعظم الباحثين، على الاقل في العالم العربي، بسبب اللغة.

انطلق الكتاب من بحث مصالح وبالتالي سياسة احدى الدول الكبرى في اواسط القرن التاسع عشر وهي بروسيا ليتابع بعدها مع الدولة الالمانية الموحدة (بعد قيام الوحدة بين المقاطعات الالمانية) في هذه المرحلة ازادت اهتمامات الامبراطورية الالمانية في الشرق وبخاصة في السلطنة العثمانية التي كانت قد اصبحت من دون اي شك "الرجل المريض" اي مجالا هربا جاهزا للتعامل المتساهل مع التأثيرات والمصالح الاوروبية المختلفة وبخاصة المتضاربة.

توزع الكتاب (610 صفحات) على اربعة اقسام في اثني عشر فصلا. يمكن فيما يلي طرح اهم المواضيع التي اهتم المؤلف.

كان للبنان موقع مميز في السياسة البروسية، منذ القرن التاسع عشر

ببحثها وتعميقها بحيث اتى الكتاب مرجعا لمعرفة احد وجوه السياسة الالمانية بدءا من عهد بسمارك وصولا الى ايام الدولتين الالمانيتين في النصف الثاني من القرن العشرين.

ركز الكتاب بداية على العلاقات العثمانية الالمانية منذ توحيد المانيا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى، اي في نصف القرن الاخير من عمر السلطنة المتداعية في اوروبا كما في افريقيا. قامت العلاقات في هذه المرحلة بخاصة في سياق سياسة المانيا "الاندفاع نحو الشرق" (اي السلطنة العثمانية) التي ادت الى دخول السلطنة الحرب العالمية الاولى الى جانب المانيا. توقف المؤلف هنا مليا عند تحول السياسة الالمانية من خط النصرنة البروتستانتية الى دعم وتشجيع الخط الاسلامي الجهادي. ان التغلغل الالمانى السياسى والاقتصادى فى السلطنة وصولا الى "تأمين مكان تحت الشمس" لألمانيا بدءا من المجال العثماني كان بحاجة الى تقارب الماني عثماني يحد من تأثير الدول الاوروبية الكبرى خصوصا فرنسا وبريطانيا.

السياسة الالمانية

المانيا، التي كانت اذا بحاجة للمجال العثماني خدمة لمصالحها الاقتصادية، وجدت في الاسلام وسيلة للدخول بقوة الى الشرق العثماني. واما الاسلام، فأريد الجسر للوصول الى مشاعر

المسلمين بدءا من السلطان وصولا الى العرب وفيه السبيل الى قهر القوى الاوروبية الكبرى صاحبة النفوذ في الشرق وذلك بدءا من المجال العثماني...

لقد وصلت الرسالة الى فريق من شعوب السلطنة والافراد البارزين ورجال الدين المسلمين خاصة خلال الحرب العالمية الاولى. فبين خطاب دمشق للامبراطور غليوم الثاني، في سنة 1898، الى دعوة بعض المسلمين الامبراطور، بعد سنوات قليلة، الى اعتناق الاسلام، مشروع جيوسياسي انتهى باعلان السلطنة الحرب الى جانب المانيا. لكن الفكر السياسي العربي كما العلاقات بين بعض تلك الشخصيات فشلت الدعاية الالمانية في الوصول الى تحقيق اهدافها وبخاصة عبر الثورة العربية.

وقد احتل الشرق الادنى موقعا مهما بداية في السياسة البروسية التي تجسدت مثلا في انشاء كنيسة بروتستانتية في القدس ثم في الدعوة المبكرة الى توطين اليهود في فلسطين. وكان للبنان موقع مميز في السياسة البروسية، منذ اوائل القرن التاسع عشر، رغم المنافسة الاكاثوليكية وبخاصة الفرنسية، ليس فقط في الشؤون الثقافية بل ايضا السياسة. لكن، هنا لم تأخذ المسألة بعدا اسلاميا ظاهرا. ولقد احتلت رحلة الامبراطور غليوم الثاني، في آخر القرن التاسع عشر، اهمية في الكتاب كـ "حدث فريد في العلاقات ما بين الدولة العثمانية ومانيا" بخاصة من خلال مرآة الصحافة العربية.

وتخطى الكتاب المرحلة العثمانية منتقلا الى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فخصّ كلا من سياسة المانيا الاتحادية تجاه الدول العربية واسرائيل والصراع بين الدولتين الالمانيتين في لبنان بفصل، تقسيم المانيا الى دولتين تتبع كل منهما احد النظامين الدوليين، ادى الى بعض الاربك بخاصة في مسألة الموقف من اسرائيل. كانت العلاقات العربية الالمانية الغربية جيدة طالما ان برلين لا تقيم علاقات مع اسرائيل. لكن قيام هذه العلاقات كان سببا في تأزم العلاقات العربية وبخاصة المصرية الالمانية، في اواسط الستينات، وبالتالي الى محاولة المانيا الديمقراطية استغلال الوضع لتطويع علاقاتها مع الدول العربية. ولقد تجسد الصراع ما بين الدوليتين

وجدت المانيا في الاسلام وسيلة للدخول بقوة الى الشرق العثماني

في الختام يمكن القول ان البحث بيروت. وختم المؤلف كتابه بفصل كامل عن استاذ عالم الاسلاميات الالمانى فريتس شتبات وكتابه حول الاسلام والقضايا العربية. في عشرات الوثائق غير المنشورة والمنشورة والمصادر والمراجع واكثرها باللغة الالمانية شكل معطيات غنية بالمعلومات التي سمحت للمؤلف بأن يشاركنا في معرفة صفحات من تريخ منطقتنا عبر السياسية والمصالح الالمانية.

• استاذة التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية

** عبد الرؤوف سنو استاذ التاريخ الحديث والمعاصر في الفرع الاول من كلية الاداب في الجامعة اللبنانية. وهو العميد السابق لكلية لتربية في الجامعة اللبنانية.